﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ لِيُرۡدُوهُمۡ وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡۖ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ١٣٧﴾ [الأنعام: 137]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـرَّبْـطُ بين قِسْمةِ المحيزِ والمحصولِ بين الله وآلهتهم، وتقديمِ أولادِهم قرابينَ للآلهةِ

الآيةُ في مَعرِضِ تعدادِ أعمالِ المُشرِكينَ مِنَ القُبحِ والجَهالةِ، فبعد أن ذكرَ ظلمَهُم منَ الشِّركِ الظّاهرِ؛ إذ جعَلُوا للّه شُركاءَ في أقسامِهِم أموالهم مِنَ الزّروعِ والأنعامِ، فقد شبّهَ حالَهم هذا بتزيينِ أولئك الشّركاءِ منَ الشّياطينِ ونحوِهم قتلَ أولادِهِم؛ حيث زيّنُوا لهم أن يجعلُوا أولادَهُم قرابينَ للآلهةِ. فهي حِكايةُ نوعٍ من أنواعِ تشريعاتِهِم الباطلةِ، وهي راجِعةٌ إلى تَصَرُّفِهِم في ذُرِّيَّاتِهِم بعدَ أن ذَكَرَ تَصَرُّفَاتِهِم في نتائجِ أموالِهِم[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِيُرۡدُوهُمۡ﴾: أصلُ الرَّدَى: الهلاكُ والموتُ؛ يُقالُ: رَدِيَ يَرْدَى، إذا هَلَكَ. وأَرداهُ اللّهُ: أَهْلَكَهُ. والتَّرَدِّي: التَّهَوُّرُ في المَهْوَى. يُقالُ رَدِيَ في البِئْرِ كما يُقالُ تَرَدَّى[2]. ورَدُؤَ الشَّيءُ يَرْدُؤ رَداءَةً، وإذا أصابَ الإنسانُ شَيئًا رَديئًا فَهوَ مُرْدِئٌ، وكذلكَ إذا فَعَلَ شَيئًا رَديئًا[3]. ويُستعمَل الإرْداءُ في الضُّرِّ الشَّديدِ (مَجازًا أَوِ استِعارةً)، وذلكَ المُرادُ هُنا.

2) ﴿وَلِيَلۡبِسُواْ﴾: أَصلُ الكَلِمَةِ مِنَ اللَّبْسِ، وهو: الخَلْطُ، يُقال:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ98.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ردى).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ردأ).

لَبَسْتُ الأَمرَ، أَلْبِسُهُ: خَلَطْتُ بَعضَهُ بِبَعضٍ[1]، ومِنهُ سُمِّيَ الثَّوبُ لِباسًا؛ لأنَّهُ يُخالِطُ البَدَنَ ويَستُرُهُ. واللَّبْسُ أيضًا: خَلطٌ بَينَ مُتَشابِهاتٍ في الصِّفاتِ يَعسُرُ مَعَهُ التَّمييزُ أو يَتَعَذَّرُ. والمقصودُ في الآيةِ: الخَلْطُ؛ أي: أَنْ يَخلِطوا عليهم دينَهُم فَيوهِموهُمُ الضَّلالَ رُشدًا.

3) ﴿فَذَرْهُمْ﴾: أصلُ الفِعلِ (وذر) التَّركُ، يُقال: فلانٌ يَذَرُ الشَّيءَ؛ أي: يتركُهُ لقلَّةِ اعتدادِهِ بِهِ. والعَرَبُ قد أماتَتِ المصدرَ مِن يَذَر والفِعلِ الماضي، واستعملَتهُ في الحاضرِ والأمرِ، فإذا أرادوا المصدرَ قالوا: ذَرْه تَرْكًا؛ أي: اترُكْهُ[2]. وقيل: أصلُ ذلك مِنَ القَذْفِ، قال تعالى: ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ [الأنعام: 91]؛ أي: اقذفْهُم وألقِهِم واتركْهُم، فلا اعتِدادَ بهم وعدم مُبالاةٍ[3]. ومِن ذلكَ الوَذَرَةُ: وهي قطعةُ لحمٍ صغيرةٍ؛ سُمِّيَت بذلك لِقلَّةِ الاعتدادِ بها، والجَمعُ وَذَرٌ[4]. ومعْنَى: ﴿فَذَرْهُمْ﴾ في الآيةِ: اتْرُكْهم؛ أَيْ: لا تُخالِطْهم، والمرادُ: عَدَمُ الاهتمامِ بهم وقِلَّةِ الاكتراثِ بأقوالِهم.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تَزْيينُ الشَّيطانِ عُزْفَ قَتْلِ الأولادِ، قُربانًا لِلآلِهةِ، أو خَشْيةً مِنَ الفقرِ أوِ العارِ

وكما حسَّنَتِ الشَّياطينُ لهؤلاءِ المُشركينَ أن يَجْعَلوا للهِ ممّا خَلَقَ مِنَ الزّروعِ والثّمارِ والأنعامِ نصيبًا، كذلكَ حَسَّنوا لهم قَتْلَ أولادِهم خَشيَةَ الفقرِ، ووَأْدَ البناتِ خَشيةَ العارِ، وكلٌّ هذا مِن خُدَعِ الشَّياطينِ، الَّذين يريدونَ أن يُهلِكُوهم، وأن يَخْلِطوا عليهم دينَهم فيلتَبِس، فيَضِلّوا ويَهْلِكوا بأفعالٍ في غايَةِ القُبحِ؛ تُزيَّنُ لهم، فتكونُ لديهم مِنَ الأمورِ الحَسَنةِ الجميلةِ، والخِصالِ الحميدَةِ. ولو شاءَ اللّهُ ﷻ لَمَنَعَ هؤلاءِ المشركينَ، وحالَ بينَهم وبينَ قَتلِ أولادِهم، ولكنَّ اللّهَ تعالى، بحَسَبِ ما اقتضَتهُ حِكمَتُهُ، خلَّى بينَهم وبينَ أفعالِهم، وخَذَلَهم عنِ

(1) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح: (لبس).
(2) الخليل، العين، والزّبيديّ، تاج العروس: (وذر).
(3) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، والفيروزآباديّ، القاموس المحيط: (وذر).
(4) الرّاغب، المفردات: (وذر).

الهُدى والحَقِّ، فأطاعوا الشَّياطينَ الّتي أغوَتْهُم، وقَتَلوا أولادَهُم، وكلُّ هذا وَاقِعٌ بمشيئَتِه تعالى، وله الحِكمةُ التّامَّةُ في ذلكَ، فدَعْهُم - أيُّها الرَّسولُ - وما يَختلِقونَ ويَتقوَّلونَ على اللّهِ تعالى مِنَ الكذبِ، ولا تحزَنْ عليهم؛ فإنَّهم لن يضُرُّوا اللّهَ تعالى شيئًا؛ فسَيَحْكُمُ اللّهُ بينَكَ وبينَهُم؛ فهو لهم بالمِرْصادِ؛ يستدْرِجُهُم، ويُمْهِلُهُم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

تَوجيهُ وصْلِ الآيةِ بما قبلَها، في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾:

قولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ عَطفٌ على قولِه: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾؛ أي: كما فعلُوا ذلك، فكذلك زَيَّنَ لكثيرٍ منهم شُركاؤُهم قَتلَ الأولادِ، والمعنى: أنَّ جَعلَهُم للّهِ نصيبًا وللشّركاءِ نصيبًا هو نهايةٌ في الجَهلِ بمعرفَةِ الخالِقِ المُنعِمِ، وإقدامَهُم على قتلِ أولادِهم نهايةٌ في الجهالةِ والضّلالةِ. وَوَصلُ الجُملَتَين الخَبَريتين أفادَ تَعدادَ ما هُم عَليهِ مِنَ الضّلالِ، وما استحقُّوا عليه أن يُسَمُّوا بالمُشركين، ويُوصَفوا بالظّالمين.

وَصْلُ الجُملَتَين الخَبَريتَيْن، أفادَ تَعدادَ ضَلالاتِهم الّتي لا تُحصَرُ

بَلاغةُ التّنبيهِ باسْمِ الإشارةِ في: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾:

يُفيدُ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ التَّنبيهَ على أنَّ أحكامَ هَؤلاءِ وأحوالَهم يُشاكِلُ بَعضُها بَعضًا في القُبحِ والخَساسَةِ[2]، أو التّقديرُ: ﴿وَجَعَلُواْ﴾ وزيَّنَ لهم شُركاؤُهُم قَتلَ أولادِهم، فَقَتَلوا أولادَهُم، فَهذهِ حِكايةُ واحدٍ من أنواعِ تشريعاتِهم الباطلةِ، فذَكَرَ جهالتَهُم لتصرُّفِهم في ذُرّيّاتِهم، وقتلِهم إيّاهُم بغيرِ حقٍّ، بعد أن ذكرَ تصرُّفاتِهم في نتائجِ أموالِهم[3].

مُشاكَلةُ أحكامِ المُشركينَ بعضِهم بعضًا، وتَعدادُ تَشريعاتِهم الباطلةِ

وَجْهُ التّعبيرِ عنِ التَّزيينِ بالماضِي ﴿زَيَّنَ﴾:

والتّعبيرُ عنِ الماضي فيه دلالةٌ على ما آلَت إليه البشريّةُ قبلَ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 9/574، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/344 - 345، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 275.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/158.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/98.

دينِ الإسلامِ؛ منَ الضّلالِ في التّدينِ الّذي هو في حقيقتِهِ لا يخرُجُ عن كونِهِ تزيينًا لهم، ولَبْسًا عليهم، فالتّعبيرُ بالماضي يدُلُّ على التّعجيبِ من حالِ النّاسِ، فقد بدأَ الظّلمُ في عقيدتِهِم، ووقعَ منذُ نشأةِ الخَلقِ.

ظُلمُ النّاسِ في عقائدِهِم، قديمٌ قِدَمَ الخَليقَةِ

بَلاغةُ التّعبيرِ بالفعلِ ﴿زَيَّنَ﴾ بَدلًا مِن (حسَّن):

قوله: ﴿زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، عبَّرَ فيه بقولِهِ: ﴿زَيَّنَ﴾، لإظهارِ أنَّ هذا الفعلَ ليسَ حَسَنًا في حقيقتِهِ، بل هو قبيحٌ وشَنيعٌ، وأنَّ الشّيطانَ هو الّذي زيَّنَهُ لهم بالغرورِ والخِداعِ؛ إذِ المعنى المحوريُّ لهذا الفِعْلِ يدُلُّ على زيادةٍ مُحبَّبةٍ في التّعلُّقِ بظاهرِ الشّيءِ، ناشئةٍ عمّا يَزْخَرُ به باطنُهُ[1]، فجَعَلَ الشّيطانُ المُشركينَ يَظنّونَ أنّهم يَفعلونَ خيرًا، وأنّهم يَقتصُّونَ من أعدائِهِم، وأنّهم يُحافِظونَ على دينِهِم، وأنّهُم يَستجيبونَ لأوليائِهِم بهذا الفعلِ القبيحِ الّذي كأنَّ في ارتكابِهِ قتلَ النّاسِ جميعًا؛ بما أوحَتهُ لهم شياطينُهُم منَ الخِداعِ وقلبِ الحقائقِ، ولِذلكَ استخدمَ اللّهُ تعالى كلمةَ ﴿زَيَّنَ﴾ في القرآنِ الكريمِ في مَواضِعَ كثيرةٍ؛ لبيانِ كيفَ يُزيِّنُ الشّيطانُ للإنسانِ ما هو شرٌّ له، وكيف يزيِّنُ الإنسانُ لنفسِهِ ما هو ضرٌّ له، وكيف يزيِّنُ المرءُ لغيرِهِ ما هو باطلٌ عندَهُ، كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [الأنفال: 48]، وقولِهِ تعالى: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الحجر: 39]، ولم يذكُرِ المفعولَ؛ لأنّ المعنى مَفهومٌ. وممّا لم يُسمَّ فاعلُهُ قولُه ﷻ: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ [آل عمران: 14]، ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ﴾ [التوبة: 37]، وقال: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [البقرة: 212].

تَصويرُ ما أوصلَهُم إليه شُركاؤُهُم، مِنَ الخِداعِ وقلْبِ الحقائقِ

بَلاغةُ تقديمِ: ﴿قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ﴾:

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾؛ فلمّا كانَ المُزيِّنُ، وهم شَياطينُ الإنسِ والجنِّ،

امتثالُ تَزْيينِ الشّياطينِ من غَرائبِ الأمورِ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (زين).

أجدرَ بِأَنْ لا يُقبَلَ تَزْيِينُهُمْ، ولا يُلتَفَتَ إليهم، فكان امتثالُ قولِهم غَريبًا، وكانَ الإقدامُ على فعلِ الأمرِ المُزَيَّنِ أشدَّ غَرابةً، قدَّمَهُ تنبيهًا على ذلك فقال: ﴿قَتْلَ أَوْلَـٰدِهِمْ﴾؛ أي: بالوَأْدِ خشيةَ الفقرِ أو العارِ، والنَّحرِ لآلهتِهم، وشَتّانَ بينَ مَن يُوجِدُ لَهُم الوَلَدَ ويَرزُقُهُ الرِّزقَ ويَخلُقُهُ، وبينَ مَن لا يكونُ إلّا سَبَبًا في إعدامِهِ[1]. فهو وحدَهُ مَن يستحِقُّ العبادةَ والتّأليهَ سبحانَه.

بَلاغةُ التَّشبيهِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ﴾:

فَظاعةُ التَّزْيينِ وشناعتُهُ، تُؤكّدُ الانحرافَ البَشِعَ للمُشركينَ

ولقد أعظمَ اللّهُ هذا التّزيينَ العَجيبَ في الفَسادِ الّذي حسَّنَ أقبحَ الأشياءِ، وهو قتلُهُم أحبَّ النّاسِ إليهم وهم أبناؤُهُم، فشُبِّهَ بنفسِ التّزيينِ للدّلالةِ على أنّه لو شاءَ أحدٌ أن يُمثِّلَهُ بشيءٍ في الفَظاعةِ والشَّناعَةِ لم يَسَعْهُ إلّا أن يُشَبِّهَهُ بنَفسِهِ؛ لأنّه لا يَبلُغُ شيءٌ مَبلَغَ أنْ يكونَ أظهرَ منه في بابِهِ، فيَلجأ إلى تشبيهِهِ بنفسِهِ؛ والتّقديرُ: وزَيَّنَ شُرَكاءُ المُشرِكين لكثيرٍ فيهم تَزيينًا مثلَ ذلكَ التَّزيينِ الّذي زيَّنُوهُ لَهم[2].

نُكتةُ إظهَارِ فاعلِ التَّزْيينِ ﴿شُرَكَآؤُهُمْ﴾:

أظهرَ فاعلَ التّزيينِ تَعجيبًا مِن أفعَالِ المُشركينَ

ومعنى تَزيينِ ذَلكَ هنا؛ أنّ الشُّركاءَ خَيَّلُوا لهؤلاءِ النّاسِ أساليبَ بشعةً في التّقربِ إلى آلهتِهم بقتلِ أولادِهم؛ إذ أوهَمُوهُم أنّ في ذلك قُرْبَةً إليهم، أو أنّ إبقاءَهم سيجلبُ العارَ، وأنّ قتلَهُم سيحقِّقُ مَنافِعَ، فأتوهم من حيث يَسْهُلُ إقناعُهم وهي سُبُل (التَّزيين) الّتي تَمْتَهِنُها الشَّياطينُ كتخويفِهِم من مَضرَّةِ الحاجةِ والعارِ في النّساءِ، وأنّ النّساءَ لا يُرْجَى مِنْهُنَّ نَفْعٌ للقبيلةِ، وأنّهنّ يُجَبِّنَّ الآباءَ عندَ لقاءِ العدوِّ، ويُؤثِرنَ أزواجهُنَّ على آبائهنَّ، فقتلُهُنَّ أصلحُ وأنفعُ من استبقائِهِنَّ على قيدِ الحياةِ، ونحو هذا مِنَ الشُّبَهِ والتَّمويهاتِ[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 2/722.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/98.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/99.

ولمّا كانَ في هذا غايةُ الغَرابةِ تَشَوَّفَتِ النَّفسُ إلى فاعلِ التّزيين، فقال: ﴿شُرَكَآؤُهُمْ﴾[1]. ونكتةُ إظهارِ فاعلِ التّزيين، وهم (الشّركاء) انسجامًا مع تشبيهِ التّزيينِ في قتلِ الأولادِ؛ بما فعلُوهُ في تقسيمِ الحَرثِ والأنعامِ بينَ اللّهِ وشركائِهم؛ فهؤلاء الشُّركاءُ هُم سببُ ما أُلبِسَ على المُشركين في الدِّينِ من قتلِ الأولادِ. فإظهارُ فاعلِ التّزيينِ مَدعاةٌ للتّعجيبِ من أفعالِ المُشركين.

تَوجيهُ التّعبيرِ بالكَثرةِ:

بيانُ بَشاعةِ تتابُعِ الأفعالِ الذّميمةِ، في المجتمَعاتِ القديمةِ

وقولُهُ: ﴿لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ لدلالةِ ما هُم عليهِ من قبولِ الحالةِ، كمُجتمَعِ مُشركٍ التبسَ عليه الدِّينُ، حتّى إنّه يُضحّي بأعزِّ ما لديه ليجعلَهُ قُربانًا للشّركاءِ. والكثرةُ هنا بيانٌ بشاعةِ ما آلَت إليه تلك المُجتمَعاتُ الرّافضةُ للرِّسالةِ السَّماويَّةِ، ودعوةِ الرَّحمةِ بالخَلقِ وبالنَّفسِ.

وذكرَ ابنُ عَاشُورَ قولَهُ: "وإنّما قالَ: ﴿لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾؛ لأنَّ قتلَ الأولادِ لم يكن يأتيهِ جميعُ القَبائِلِ"[2]، فلم يَنسبِ القتلَ إلى كلِّهم، بل نسبَهُ سُبحانَهُ إلى كثيرٍ منهم، وذلك إنصافُ القرآنِ الكريمِ في حكايةِ أفعالِ العبادِ، وأنَّ قتلَ الأولادِ كانَ عندَ كثيرينَ منهُم[3].

إضافةُ القَتلِ إلى الشُّركاءِ في قوله تعالى: ﴿قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾:

بيانُ دَورِ الشُّركاءِ في إفسادِ مُجتمَعاتِ الشِّركِ

وقولُهُ: ﴿قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ﴾؛ أي: بالوَأدِ، وهوَ المقصودُ بقتلِ الأولادِ في هذه الآيةِ ونحوِها؛ إذ كانوا يَفعلونَ ذلك خَشيَةَ الفقرِ، كما قالَ تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ [الإسراء: 31]، وخَشيَةَ أنْ تُفتَضَحَ الأُنثَى بالحاجَةِ إذا هَلَكَ أبُوها، أو مَخافَةَ الوقوعِ في العارِ، أو السِّباءِ. والوَأدُ ضَلالةٌ ابتدعَها مُجتمَعُ الشّركِ تخلُّصًا من

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 2/722.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/99.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2689.

مَعَرَّةِ الفَاقَةِ والعَارِ والسِّباءِ، وربَّما كانَ سَدَنَةُ الأصنامِ يُحَرِّضونَهم على إنجازِ أمرِ المَوءُودةِ إذا رَأوا مِن بعضِهم تَثاقُلًا، والمعنى: أنَّ شُركاءَهُم مِنَ الشَّياطينِ، أو مِن سَدَنَةِ الأصنامِ، زيَّنُوا لهم قَتلَ أولادِهم بالوَأدِ، أو بالنَّحرِ؛ وذلك قَصْدَ التّقرُّبِ إلى أصنامِهم؛ فيُقرِّبونَ أولادَهُم إلى الأصنامِ طلَبَ رضائِهِم، فتكونُ إضافةُ القَتلِ إلى الشُّركاءِ مُستعمَلَةً في حَقيقَتِها ومَجازِها[1].

نُكتَةُ تقديمِ المَفعولِ ﴿قَتْلَ﴾، على الفاعِلِ ﴿شُرَكَآؤُهُمْ﴾:

العَـرَبُ تُـقـدِّمُ الأَهـمَّ في الكلامِ الّـذي هو مَحطُّ العِنايةِ

وفي الآيةِ تقديمُ المَفعولِ ﴿قَتْلَ﴾ على الفاعلِ ﴿شُرَكَآؤُهُمْ﴾، ونَظيرُه في القرآنِ قولُهُ: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾ [الأنعام: 158]، وقولُهُ: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾ [البقرة: 124]، والسَّبَبُ في تقديمِ المَفعولِ؛ أنّ العَربَ يُقدِّمونَ الأهَمَّ في الكلامِ، الّذي هو مَحطُّ العنايةِ، فمَوضِعُ التَّعجُّبِ ها هُنا إقدامُهُم على قَتلِ أولادِهم، فلِهذا السَّبَبِ حَصَلَ هذا التَّقديمُ[2].

نُكتَةُ إسنادِ التَّزْيينِ إلى الشُّركاءِ:

الشّياطينُ هُم سَببُ الإشراكِ والـفـسـادِ والطُّغيانِ

وأسندَ التّزيينَ إلى الشّركاءِ؛ إمّا لإرادةِ الشّياطينِ الشُّركاءِ، فالتّزيينُ تزيينُ الشّياطينِ بالوَسوَسَةِ، فيكونُ الإسنادُ على الحَقيقَةِ، وإمّا لأنّ التّزيينَ نشأَ لهم عَن إشَاعةِ كُبرائِهِم فيهم، أو بِشَرعٍ وَضَعَهُ لَهم مَن وَضَعَ عِبادَةَ الأصنامِ، وفَرَضَ لَها حُقوقًا في أموالِهِم، فَيكُونُ إسنادُ التَّزيينِ إلى الشُّركاءِ على سبيلِ المَجازِ؛ لأنَّ الأصنامَ سَبَبُ ذلك بِواسِطةٍ، أو بِواسِطَتَينِ[3]. وفي جميعِ الأحوالِ فإنّ الشّياطينَ هُم سببُ الإشراكِ والفسادِ والطُّغيانِ.

تَوجيهُ القراءاتِ في الآيةِ الكريمةِ:

وقرأَ الجمهورُ: ﴿زَيَّنَ﴾، ونصبَ: ﴿قَتْلَ﴾ على المفعوليّةِ لـ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/101.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/159.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/99.

الـشُّـركـاءُ هُـمُ القاتِلون حَقيقَةً أو مَجازًا

﴿زَيَّنَ﴾، ورفعَ ﴿شُرَكَآؤُهُمْ﴾ على أنّه فاعلُ: ﴿زَيَّنَ﴾، وجرَّ ﴿أَوْلَـٰدِهِمْ﴾ بإضافةِ ﴿قَتْلَ﴾ إليه من إضافةِ المصدرِ إلى مفعولِهِ. وقرأَ ابنُ عامرٍ: ﴿زُيِّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلُ أَوْلَـٰدَهُمْ شُرَكَآئِهِمْ﴾ ببناءِ فعلِ ﴿زُيِّنَ﴾ للمفعولِ، ورَفعِ ﴿قَتْلُ﴾ على أنَّه نائبُ الفاعلِ، ونَصبِ ﴿أَوْلَـٰدَهُمْ﴾ على أنَّه مَفعولُ ﴿قَتْلُ﴾، وخَفضِ هَمزَةِ ﴿شُرَكَآئِهِمْ﴾ بإضافةِ ﴿قَتْلُ﴾ إليهِ، وهو فاعِلٌ في المعنى[1]، فَفَصَلَ بينَ المُضافِ، وهو ﴿قَتْلُ﴾ وبينَ ﴿شُرَكَآئِهِمْ﴾، وهو المُضافُ إليهِ بالمفعُولِ، وهو ﴿أَوْلَـٰدَهُمْ﴾، وجرّ ﴿شُرَكَآئِهِمْ﴾ على إضافةِ ﴿قَتْلُ﴾ إليه، من إضافةِ المَصدرِ إلى فاعلِهِ.

والمَعنَى على هذه القِراءةِ: أنَّ مُزَيِّنًا زَيَّنَ لكَثيرٍ منَ المُشركينَ أنْ يقتُلَ شُركاؤُهُم أولادَهُم، فإسنادُ القتلِ إلى الشُّركاءِ؛ إمّا لأنَّ الشُّركاءَ سَبَبُ القَتلِ إذا كان القَتلُ قُربَانًا للأصنامِ، وإمّا لأنَّ الّذين شَرَّعُوا لَهُمُ القَتلَ هُمُ القَائِمونَ بِدِيانَةِ الشِّركِ، وإذا كانَ المُرادُ بالقَتلِ الوَأدَ، فالشُّركاءُ سَبَبٌ، وإن كانَ الوَأدُ قُربَانًا للأصنامِ، وإنْ لم يكُنْ قُربانًا لَهُم؛ فالشُّركاءُ سببُ السَّبَبِ، لأنَّهُ من شرائعِ الشِّركِ[2]. والشُّركاءُ على هذه القِراءَةِ هُمُ الّذين يتناولونَ وأدَ بناتِ غَيرِهِم فهُم القاتِلون، وهذا على المجازِ العقليِّ؛ لأنّه قد أسندَ القتلَ إلى الشُّركاءِ.

دَلالةُ اللّامِ في ﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾، و﴿وَلِيَلْبِسُواْ﴾:

اللّامُ لِلعاقبةِ أو لِلتّعليلِ، لبيانِ أثَرِ الشُّركاءِ في خَلْطِ الدِّينِ

وقولُهُ: ﴿لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ الإرداءُ في اللّغةِ: الإهلاكُ، ومنهُ قولُهُ تعالى: ﴿إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾﴾ [الصّافّات: 56]، واللّامُ هاهُنا مَحمولَةٌ على لامِ العاقبةِ، كما في قولِهِ: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القَصص: 8]، وقولِهِ: ﴿وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾؛ أي: لِيَخلِطُوا؛ لأنَّ العَرَبَ كانوا على بقايا من دِينِ

(1) ابن الجزريّ، النّشر: 2/263.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/102.

إسماعيلَ، فَهَذا الّذي أتاهُم بِهَذِهِ الأوضاعِ الفاسدةِ، أرادَ أن يُزيلَهُم عَن ذلكَ الدّينِ الحَقِّ[1].

قالَ الزّمخشريُّ: "إنْ كان التَّزيينُ منَ الشّياطينِ فهي على حقيقةِ التّعليلِ، وإن كانَ مِنَ السَّدَنَةِ فعلى معنى الصَّيرورةِ"[2]، فـ" السَّدَنةُ لم يزيِّنوا لهم ذلك، وغرضُهم إهلاكُهُم، ولكن لمّا كانَ مآل حالِهم إلى الإرداءِ أتى باللّامِ الدّالَّةِ على العاقبةِ والمآلِ"[3]. فَاللّامُ لِلعاقِبَة إنْ كانَ المُرادُ بالشُّركاءِ السّدنةَ[4]؛ أي: زيّنوا لهم ذلك قَصدًا لنَفعِهم، فانكشَفَ عن أضرارٍ جَهلُوها. فإنْ كانَ المُرادُ بالشُّركاءِ الجنَّ؛ أي: الشّياطينَ؛ فاللّامُ للتَّعليل[5]؛ لأنّ الإيقاعَ في الشّرِّ من طبيعةِ الوَسواسِ؛ لأنّهُ يَسْتَحْسِنُ الشّرَّ ويَنساقُ إليه من غيرِ قصدٍ إلى كونِ ما يَدْعُونَهُم إليه مُرديًا ومُلبسًا، فإنّهم أولياؤُهم لا يَقصِدُونَ إضرارَهُم، ولكنَّهُم لمّا دَعَوهُم إلى أشياءَ هي في نَفسِ الأمرِ مَضارُّ كانَ تَزيينُهم مُعَلَّلًا بالإرداءِ والإلباسِ، وإنْ لم يَفقَهُوهُ، بخِلافِ مَن دعا إلى سَبَبٍ فَتَبيَّنَ خِلافُهُ، والضَّميرُ للشُّركاءِ والتَّعليلُ لِلتَّزيينِ[6].

سِرُّ تقديمِ (الإرداءِ) على (الإلباسِ):

الـهـلاكُ نَتيجةٌ حَتميّةٌ للإلباسِ في الدِّينِ

في قولِهِ تعالى: ﴿لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ قدّمَ الإرداءَ على الإلباسِ؛ والرَّدى: الموتُ، والهلاكُ، والضُرُّ الشّديدُ، فناسبَ أن يُردفَهُ شنيع فعلِهم بقتلِ أولادِهم، وعظيم مَفْسَدَتِهِمْ بإزهاقِ النّفسِ البريئةِ الّتي حرّمَ اللّهُ قتلَها إلّا بالحقِّ؛ فقوله: ﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾؛ أي: يُهلِكُوهم بالإغواءِ وهو إفسادُ الفِطرةِ، الّذي يُذهِبُ بما أودعَ في قلوبِ الوالدين من عواطفِ الرّأفةِ والرّحمةِ، بل يقلبُها إلى مُنتَهى

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/159.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/70.
(3) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/179.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/184.
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/184.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/104.

الوَحشيّةِ والقسوةِ، حتّى ينحرَ الوالدُ ريحانةَ قلبِهِ بمُدْيتِهِ، ويدفنَ ابنتَهُ الضّعيفةَ؛ وهي حيّةٌ بيدِهِ. فهذا إرداءٌ نفسيٌّ معنويٌّ فوقَ الإرداءِ الحسّيِّ؛ وهو القتلُ وتقليلُ النّسلِ"[1].

تَوجِيهُ لفْظَيِ: (الإرداءِ)، و(الإلباسِ) بينَ التَّوريةِ، والاستعارةِ، والمَجازِ:

المعنَى المَجازيُّ للإرداءِ والإلباسِ، هو الأظهرُ دلالةً في الأساسِ

ومن معاني التّردّي أيضًا لبسُ الرّداءِ؛ ثمّ أُتبعَت بقولِهِ: ﴿وَلِيَلْبِسُواْ﴾؛ إذِ التّناسبُ في معنى اللّبسِ بينَ الكلمتين بيّنٌ؛ فيكون معنى ﴿وَلِيَلْبِسُواْ﴾ توريةً؛ لأنّ اللّفظَ يَحتملُ مَعنيين: الأوّلُ قريبٌ، وهو المُتبادَرُ إلى الذّهنِ؛ وهو الإرداءُ؛ منِ ارتداءِ الثّوبِ؛ لتناسبِهِ مَعَ الإلباسِ في قولِهِ: ﴿وَلِيَلْبِسُواْ﴾، الّذي يدُلُّ كذلك على معنى اللّباسِ؛ منِ لبسِ الثّوبِ. ولكنّه لمّا قالَ: ﴿عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ خرجَ المعنى الحقيقيُّ لقولِهِ: ﴿وَلِيَلْبِسُواْ﴾ إلى معنىً مَجازيٍّ على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ، فكما أنّ اللِّباسَ يُغطّي الجَسَدَ؛ فَكَذلكَ هُنا شابَهَت تَزيينَ الشّياطينِ لأوليائِهم تغطيةَ الحقيقةِ، فصارَت كتغطيةِ الأجسادِ باللِّباسِ. وبحسبِ ذلك فقد انعكسَ معنى ﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾ إلى معنًى آخرَ غيرِ ارتداءِ المَلابسِ. فمن معاني الإرداءِ: الإيقاعُ في الرَّدَى، والرَّدَى: المَوتُ، ويُستعمَلُ في الضُّرِّ الشّديدِ مَجازًا، وذلكَ المُرادُ هنا، وكما قالَ تعالى عن أهلِ النّارِ: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [فصّلت: 23]؛ أي: وذلكم ظنُّكُم السّيِّئُ الّذي ظننتُمُوه بربِّكُم أهلكَكُم، فأوردَكُم النّارَ. ولَبَّسَ عَليه أوقَعَهُ في اللَّبسِ، وهو الخَلطُ والاشتباهُ؛ أي: أنْ يَخلِطُوا عَلَيهم دِينَهُم، فَيُوهِمُوهُمُ الضّلالَ رُشدًا، وأنّهُ مُرادُ اللهِ منهم، ويخلطونَ عليهم بينَ ما يَرضاهُ اللّهُ، وما لا يَرضاهُ، ويُخيِّلُونَ إليهم أنّ وأدَ البَناتِ مَصلَحةٌ.

فمعنى: ﴿وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾: أنّهم يُحْدِثُونَ لهم دِينًا

(1) رضا، تفسير المنار: 8/110.

مُختلِطًا من أصنافِ الباطِلِ، وقيل: المُرادُ لِيُدخِلُوا عَلَيهِمُ اللَّبسَ في الدّينِ الّذي كانُوا عَليه، وهوَ دِينُ الحَنِيفِيَّةِ، فَيَجعَلُوا فيه أشياءَ مِنَ الباطِلِ تَختلِطُ مَعَ الحَقِّ[1].

بَلاغةُ الاحْتباكِ، في الآيةِ الكريمةِ:

حَـذْفُ أشْنَعِ الأقوالِ والأفعالِ مِنَ الكلامِ

وفي عمومِ معنى الآيةِ احتباكٌ؛ والمعنى بحسْبِهِ: وكذلك زَيّنَ لكثيرٍ مِنَ المُشركينَ شركاؤُهم؛ فشرّعوا لهم، أو فأوحَوا إليهم قتلَ أولادِهم؛ فقتلوهم؛ ليُردوهُم، ولِيلبِسُوا عليهم دينَهُم. فحَذَفَ مِنَ الكَلامِ أشنَعَ ما فيه مِنَ القَولِ والعَمَلِ؛ إذ حَذَفَ أوّلًا ما شَرَعَ، وما أوحَى الشَّياطينُ أو الشّركاءُ، ثمَّ حَذَف ثَانِيًا ما فَعَلَه المُشرِكونَ؛ وهوَ المُباشَرَةُ بقتْلِ أولادِهم.

تَقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَيْهِمْ﴾:

بيـانُ قـصْـدِ الشَّياطينِ، في إغـواءِ النّـاسِ المغرورِينَ

وقدّمَ الجارَّ والمجرورَ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ للاهتمامِ بالمُشركينَ، ولبيانِ أنّهم هُمُ المقصودون في هذا العملِ الشَّنيعِ، وأنّهم فريسةٌ سائغةٌ لشَياطينِ الإنسِ والجنِّ، بسبَبِ ما حقَّقوهُ مِنَ الإلباسِ عليهم في الدِّينِ ورفضِ الشَّرعِ الحَنيفِ.

التّعبيرُ عنِ الإرداءِ والإلباسِ، بصِيغةِ المضارعِ:

تـجـدُّدُ أفـعـالِ الـشّـيـاطـيـنِ بـالإيـحـاءِ والـتّـزيـيـنِ للمُشركينَ

عبّرَ عنِ الإرداءِ والإلباسِ بالمُضارعِ لدلالةِ التّجدُّدِ مع الزّمنِ، فحالُ مَن أشركَ باللهِ يتَكَرَّرُ في كلِّ وقتٍ، مع الأجيالِ المُختَلِفَةِ والمُتواليَةِ، فتَتَكَرَّرُ صورةُ الإرداءِ، ويَتكَرَّرُ ما يفعلُهُ الشَّياطينُ مِنَ اللَّبسِ على أتباعِهم في دينِهم.

نِسْبةُ (الدِّينِ) إلى ضَميرٍ عائدٍ على المشركينَ:

وقال: ﴿وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْۖ﴾، فنَسَبَ الدِّينَ إلى ضميرِهم، ولو قالَ: (ولِيَلبِسوا عليهم الدّينَ) لأشكلَ في الفهمِ بأنّه الدّينُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/104.

الحَقُّ؛ وهو دينُ الإسلام، لكنّه لمّا قالَ: ﴿وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ زالَ الإشكالُ، وعُلِمَ أنّ لهم دِينًا خاصًّا بهم، وأنّ شياطينَهُم يَلبِسُونَ عليهم الأمورَ، فيُخيّل إليهم أنَّه الدّينُ الحَقُّ، فيَعبدونَ غيرَ اللّه، ويَعمَلونَ بغيرِ ما شرعَ، فأردوهم بذلك الاعتقادِ والفعلِ؛ ولذلكَ قالَ تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون: 6]، مُبيِّنًا المُفاصَلَةَ بينَ عبادةِ اللّهِ وعبادةِ غيرِهِ، وأنّهما لا يَجتمعان، وأنَّ دينَ الإسلامِ لا يُخالِطُ شيئًا من دينِ الشِّركِ، وتَأْييسًا لِلمُشركينَ مِن أن يوافقَهُم الرّسولُ ﷺ في شيءٍ ممّا هُم عَليهِ مِنَ الكفرِ.

المُفاصَلةُ بينَ عبادةِ اللهِ وعبادةِ غيرِهِ، ممّا أوحى به الشّياطينُ.

تَعليقُ المَشيئةِ باسمِ اللهِ ﷻ.

وقولُهُ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ﴾ يدُلُّ على أنَّ كلَّ ما فعلَهُ المُشركونَ هو بمشيئةِ اللّهِ تعالى، والآيةُ لبيانِ قدرتِهِ سبحانَهُ على منعِ تلك الأعمالِ، كما كانَ في الآيةِ السّابقةِ من بيانِ قدرتِهِ على الخَلقِ مِنَ العَدَمِ، أو أنّه أنشَأَ المُخاطَبينَ من ذرّيّةِ قومٍ آخرين. و﴿فَعَلُوهُۖ﴾ يعودُ إلى المُشركينَ؛ أي: لو شاءَ اللّهُ لَعَصَمَهُم مِن تَزيينِ شُركائِهِم، أو يَعُودُ إلى الشّركاءِ؛ أي: لو شاءَ اللّهُ لصدَّهُم عن إغواءِ أتباعِهِم، وضميرُ النَّصبِ يعودُ إلى القَتْلِ أو إلى التَّزيينِ على التّوزيعِ، على الوَجهَينِ في ضميرِ الرّفعِ[1]. ولمّا كان أوَّلُ الآيةِ مُعْلِمًا أنّ هذا كانَ بمشيئةِ اللّهِ وجَعلِه، أيّدَ ذلك، ومكَّنَهُ في آخرِها؛ بأنَّه لو شاءَ ما كانَ، وذلك تَنزيهٌ لصفةِ الرُّبوبيّةِ مِنَ العَجزِ[2].

بيانُ قُدرتِهِ على منعِ تلك الأعمالِ، وردِّ كلِّ ما يقعُ إلى اللهِ سبحانَهُ

دَلالةُ الفاءِ في جُملةِ الفاصلةِ:

والفاءُ في قولِهِ تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ الفصيحةُ، تدُلُّ على مَحذوفٍ، فتُفصِحُ عنه، والتَّقديرُ: فإذا كانوا مُصِرِّينَ على ما هُم عَليه مِنَ الضَّلالةِ؛ فذرْهُم وما يفترونَ، أو هي فاءُ التّفريعِ؛

السّياقُ يُفيدُ الإعراضَ عن أفعالِ المُشركينَ الذّميمةِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/105.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 2/696.

ومُفادُ التَّفْريعِ أمرُ الرّسولِ بتَركِهم، وهو لَونٌ مِنَ التّذييلِ[1]، ومعلومٌ أنّ التّركَ إعراضٌ عنِ الاهتمامِ بما يَفعلون، وليسَ إعْراضًا عَن دعوَتِهم للدّينِ الحَقِّ، وهو دينُ الإسلامِ؛ أي: أعْرِضْ عَن أفعالِهم مِمّا اقتَرَفوهُ ظَنًّا منهم أنّهُ دينٌ، وتابِعْ دعوتَهم إلى دينِ اللّهِ تعالى.

اصطفاء كلمة: ﴿فَذَرْهُمْ﴾، ودلالته في الجملة الإنشائية:

وفي قولِهِ: ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾، اُصطُفِيَ لفظُ (ذَرْهُمْ) على غيرِهِ مِنَ الألفاظِ المُؤَدِّيَةِ إلى المَعْنَى مثل: اتركْهُم أو دَعْهُم؛ فمِن بلاغةِ اختيارِ مفردةِ ﴿فَذَرْهُمْ﴾ أنّ معناها يُستعمَلُ في تركِ الشّيءِ غير آبهٍ بهِ؛ يُقالُ: فلانٌ يَذَرُ الشّيءَ؛ أي: يقذفُهُ لقلّةِ اعتدادِهِ بهِ. والعبارةُ تتضمّنُ الوعيدَ والتّهديدَ، ومُفَادُهَا: اترُكْهُم وما يفترونَ مِنَ التّكذيبِ[2].

الإعـــــراضُ عنهم إعـراضٌ عـن الاهـتـمـام بـغـرورهـم، لا إعـــراض عـن وعـظـهـم وتذكيرهم

وقولُهُ: ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾، وهذا على طريقةِ قولِهِ: ﴿ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ﴾ [فصّلت: 40]، وقال ابن عاشور: "وفرّع عليه أمر الرسول ﷺ بتركهم وافتراءهم، وهو ترك إعراضٍ عن الاهتمام بغرورهم، والنَّكَد منه، لا إعراضٍ عن وَعْظهم ودعوتهم"[3].

والغرضُ مِنَ السّياقِ الإعلامُ بأنّ هذه سُنّةُ اللّهِ في خلقِهِ؛ فكثيرٌ منهُم لا يؤمنونَ ويتّخذونَ لهم أربابًا يُشرّعونَ لهم دِينًا غيرَ دينِ اللّهِ، فيردُوهم ويُلْبِسُوا عليهم الأمورَ. وأمثالُ هؤلاء يقتضي تركُهُم وعدمُ إضاعَةِ الوَقتِ مَعَهم، والرّدُّ على تخرُّصاتِهم؛ لأنَّهم قد طُبِعَ على قُلُوبِهِمْ، ولو شاءَ اللّهُ لَهَداهُم.

التَّعبيرُ عنِ المُفترَى بالموصولِ ﴿وَمَا﴾:

بـيـانُ شَـنـيـعِ أقـــوالِـــهِـــم وأفعالِهِم

في قولِهِ: ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ عبّرَ عنِ المُفترَى بالموصولِ

(1) الموصلّي، أولى ما قيل: 3/358.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/210.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/أ11.

﴿وَمَا﴾، وفائدةُ ذلك التّعريضُ بذكرِ الصّلةِ بشناعةِ الّذي يفترونَه، فجِيءَ بـ ﴿وَمَا﴾ مَوصُولًا بقولِهِ: ﴿يَفْتَرُونَ﴾؛ لبيانِ أنّ ما يقولونَهُ هو افتراءٌ مُنْكَرٌ لا أصلَ لهُ، فقد سوَّلَت لهم أنفسُهُم، وأوحَت إليهم شياطينُهم قولَهُ أو فعلَهُ.

إيثارُ لفْظِ (الافتراءِ) على (الكذبِ):

الافــتراءُ كـذِبٌ في حـقِّ الآخَـر، وهـو أخـصُّ مِنَ الكذبِ

الكذبُ: هو عدمُ مُطابَقةِ الخبرِ للواقعِ، أو لاعتقادِ المُخْبَرِ لهما على خلافٍ في ذلك. والافتراءُ: أخصُّ منه؛ لأنّ الافتراءَ الكذبُ في حقِّ الغَيرِ بما لا يَرتَضيهِ، بخِلافِ الكَذِبِ، فإنَّهُ قد يَكونُ في حقِّ المُتكلِّم نفسِهِ، ولذا يُقالُ لمَن قالَ: (فعلتُ كذا، ولم أفعَلْ كذا) مع عدمِ صدقِهِ في ذلك: هو كاذبٌ، ولا يُقالُ: هو مُفتَرٍ، وكذا مَن مَدَحَ أحدًا بما ليسَ فيه، يُقالُ: إنَّه كاذِبٌ في وَصفِهِ، ولا يُقالُ: هو مُفتَرٍ، لأنَّ في ذلك مِمّا يرتَضيهِ المَقولُ فيه غالبًا. وقال سُبحانَهُ حكايةً عنِ الكُفّارِ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: 21]؛ لِزَعْمِهِم أنَّهُ أتاهُم بما لا يَرتَضيهِ اللّهُ سبحانَه مع نسبَتِهِ إليهِ. ونَسَبَ الكفّارُ النّبيَّ ﷺ بأبشعِ الكذبِ في قولِهِم: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [النّحل: 101]؛ أي: بأنَّه كاذبٌ مُختَلِقٌ على اللّهِ ما لم يَقُلْهُ، وهو ﷺ ليسَ كما يَزعمونَ. وأيضًا قد يَحْسُنُ الكذبُ على بعضِ الأحوالِ، كالكذبِ في الحربِ، وإصلاحِ ذاتِ البَينِ، وهذا بخلافِ الافتراءِ[1].

وقولُهُ: ﴿وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ يدُلُّ على أنّهم كانوا يقولون: (إنّ اللّهَ أمرَهُم بقتلِ أولادِهِم)، فكانوا يَفترونَ على اللّهِ كذبًا وزُورًا[2]؛ فما يفترونَهُ على اللّهِ فيدّعون أنّه أمرَهُم بما اقترفُوه، ومَعلومٌ أنّ افتراءَهُم هذا ناتجٌ عن كبيرةٍ أخرى؛ هي اتّباعُ لافتراءِ شركائِهِم،

(1) العسكريّ، الفُروق اللّغويّة، ص: 449.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/105.

فسَمّاهُ افتراءً؛ لأنَّهُم تَقلَّدُوه عن غيرِ نَظَرٍ ولا استدلالٍ، فجَعَلَهم مُشارِكين لشياطينِهِم مِنَ الجِنّ والإنسِ فيما يَفتَرونَ، وقد كانوا يُموِّهُونَ على النّاسِ أنَّ هذا مِمَّا أمرَ اللّٰهُ بهِ، كما دَلَّ عليه في الآيةِ التّاليةِ قولُهُ: ﴿ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ﴾ [الأنعام: 138].

صِيغةُ التّعبيرِ عن فعْلِ الافتراءِ بالمضارعِ المَجموعِ:

افـتراؤُهُـم يقعُ مـن غـيرِ نَـظَـرٍ ولا اسـتـدلالٍ، بتجدُّدٍ وتَمالُؤٍ

آثرَ التّعبيرَ عنِ افترائِهِم بالمضارعِ للدّلالةِ على ديمومةِ فعلِهِم هذا، وتجدُّدِهِ فيهم خصلةَ سوءٍ، وردِيَّ طبْعٍ؛ وهذا يناسبُ الأمرَ بتركِهِم، فحَرِيٌّ أَنْ يُهْجَرَ مَنْ يُكَرِّرُ الافْتِرَاءَ، ويُصرُّ عليه. وعبّرَ بصيغةِ الجمعِ للدّلالةِ على كثرةِ صدورِ هذا الفعلِ منهم، واجتماعِهم، وتمالُئِهم عليه.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(ذَرْهم) و(دَعْهم) و(اترُكْهم):

الـوَذرُ تـركُ ما لا قيـمةَ لـهُ، على خلافِ الدَّعةِ

قوله: ﴿فَذَرۡهُمۡ﴾: وردَت في القرآنِ الكريمِ أكثرَ من عشرِ مرّاتٍ، منها في هذه السّورةِ الغرّاءِ: ﴿ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ٩١﴾ [الأنعام: 91]، و﴿فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ﴾ [الأنعام: 112 - 137]، ومن ذلك صيغة: يَذَرُ، ذَرْ، وَذْرًا، ووَذَرَ عمَلَهُ: تركَه[1]، وَذَرَ (الوَذْرَةَ) وَذْرًا: بَضَعَها بَضْعًا وَقَطَعها[2]. والاختلافُ بينَ (دَعْ) و(ذَرْ) أنّ: (دَعْ) و(يَدَع) يُستَعمَلان فيما لا يُذَمُّ مُرْتَكِبُه، لأنّهُ مِنَ الدَّعَةِ وهيَ الرّاحَةُ، ولذا قيلَ لمُفارَقَةِ النّاسِ بَعضِهِم بَعضًا موادَعَةٌ وعَدَمُ اعتدادٍ. فلذا قالَ تَعالَى: ﴿أَتَدۡعُونَ بَعۡلٗا وَتَذَرُونَ أَحۡسَنَ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٢٥﴾ [الصّافات: 125]، دونَ أن يقولَ: (وتَدَعونَ)، مع ما فيهِ مِنَ الجناسِ[3]. وأمّا التَّرْكُ؛ فهو تَرْكُ الشَّيءِ: فرفضُهُ قصدًا واختيارًا، أو قهرًا واضطرارًا، فمِنَ

(1) أحمد مختار، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: 3/2420.
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: 14/355.
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: 22/303.

الأوّل: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ [الكهف: 99]، وقوله: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾ [الدّخان: 24]، ومِنَ الثّاني: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ﴾ [الدّخان: 25][1].

(يَفترونَ) و(يَكذِبونَ) و(يَبهتونَ):

الافـتراءُ أخـصُّ مِـنَ الـكـذبِ، والـبُـهـتـانُ هو افتراءٌ ومُكابرةٌ

يَفترونَ: الفَرْيُ: قطعُ الجلدِ للإصلاحِ، والإفراءُ للإفسادِ، والافتِراءُ فيهما، وفي الإفسادِ أكثرُ، وكذلك استُعمِلَ في القرآنِ في الكذبِ والشّركِ والظّلمِ، نحو: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النّساء: 48]، وكثيرًا ما أتى الافتراءُ مَقرُونًا بالكذبِ؛ مثل قولِهِ: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ [النّساء: 50]، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ [المائدة: 103]، ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ [يونس: 60]، ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [هود: 50]، وقوله: ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾ [مريم: 27]، قيل: معناه عظيمًا، وقيل: عجيبًا، وقيل: مَصنوعًا، وكلُّ ذلك إشارةٌ إلى معنًى واحدٍ[2]. والافتراءُ: أَخَصُّ مِنَ الكذبِ؛ لأنّ الافتراءَ الكذبُ في حقِّ الغَيرِ بِما لا يَرتَضيهِ[3].

وأمّا يُكذِّبون فيُقالُ الكذبُ في المَقالِ والفِعالِ، قالَ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [النّحل: 105]، يُقالُ: رجلٌ كَذّابٌ وكَذُوبٌ؛ وذلك للمبالغةِ، قالَ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [التّوبة: 90]، يُقالُ: أَكْذَبْتُهُ: وجدتُهُ كاذبًا، وكَذّبْتُهُ: نسبتُهُ إلى الكذبِ صادقًا كان أو كاذبًا، وما جاءَ في القرآنِ ففي تَكْذيبِ الصّادقِ، نحو: ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [آل عمران: 11]، ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾﴾ [المؤمنون: 26]، ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ [ق: 5]. وأمّا البُهتانُ فهو الكَذبُ الّذي يواجَهُ به

(1) الرّاغب، المفردات: (ترك).
(2) الرّاغب، المفردات: (فرى).
(3) العسكريّ، الفُروق اللّغويّة، ص: 449.

صاحبُهُ على وجهِ المُكابرةِ له، قال تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾ [النّساء: 156]؛ فإنّ اليهودَ كانوا يُواجِهونَ مريمَ عليها السلام بالقذفِ، وينسبونَها إلى ما لا ينبغي مِنَ القولِ بالمُشافهةِ[1].

ولذلك آثرَ النّظمُ استخدامَ فعلِ الافتراءِ لمعناه الدّقيقِ ودلالتِهِ في سياقِ الآيةِ الكريمةِ على صنيعِ المُشركينَ مِنَ الكذبِ في حقِّ اللّهِ وشرعِهِ بما لا يَرتَضيهِ، وأنَّ افتراءَهم حصلَ منهم من غيرِ نَظَرٍ ولا استدلالٍ، وهو مُتجدِّدٌ فيهم، مع اجتماعِهم وتمالُئِهم عليه.

(1) العسكريّ، الفُروق اللّغويّة، ص: 449.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني عشر، سورة الأنعام من الآية 124 إلى سورة الأعراف الآية 13
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة الأنعام من الآية 124 إلى سورة الأعراف الآية 13 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 12 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-64-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 12 : سورة الأنعام من الآية 124 إلى سورة الأعراف الآية 13.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-798-64-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1637585 بتاريخ 2023/12/19م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»